البناء الفني في قصائد المنتقيات وقصائد الملحمات في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

أ.د. حسين عبيد شراد الشمري **الباحث ـ فيد عبد الحسين داخل**

Hussain.obied@qu.edu.iq en.post16@qu.edu.iq

كلية الآداب / جامعة القادسية

تاريخ الاستلام: ١٥-٨-٢٠٢١

تاريخ القبول: ١٤ – ٩- ٢٠٢١

الملخص

عــمد البحث مــوازنة بين أصحاب المنتقيات من (العصر الجاهلي) وأصحاب الملحــمات من (العصر الأمــوي) من حيث البناء الفني في قصائدهمــا ، و اشتمــل على مقدمتين وســم بهما العصــران ، وهما : المقدمة الطـللية والمقدمة الغزلية و من هنا اتجهت تلك المحاولة في هذين الطبقتين إلى (المنتقيات والملحمات) التي تضمنتا على أشعار مثلت فترة زمنية عاشها أصحــاب الطبقتين في العصرين (الجاهلي والأموي) ، وقد قسمت البحث على تمهيد ومبحثين ، عرفت في التمهيد بصاحب الجمهرة ، وقد تضمنت الدراسة البناء الفني في مبحثين ، الأول في بيان المــقدمة الطللية لــدى أصحاب الطبقتين ، أما المبحث الثاني فكــان بعنوان المقدمة الغزلية في قصائد أصحاب المنتقيات والملحمات ، وختمت البحث بما توصلت إليه من نتائج ، فضلا على قائمــة بالمصادر والمراجع ، وملخص باللغة العربية والانجليزية .

الكلمات المفتاحية : المنتقيات ، الملحمات ، الجمهرة

Technical construction in Al-Muntaqiat and al-Mulhamat Poems in Jamharat al-Arab poetries for Abi-Zaid Al-Qurashi

Prof: Hussein Obied Sharrad The researcher : Faid Abd Al-Hussein

Hussain.obied@qu.edu.iq en.post16@qu.edu.iq

College of Arts _ Al - Qadisiyah

Abstract

What I meant in this research is the comparison between the owners of Al-Muntaqiat who are from the Pre-Islamic age and the owners of Al-Mulhamat who are from Umayyad age whence technical construction in their poems that which contains two introductions that spread at those two

ages , these introductions are : the Tallal introduction and the spinning introduction , I saw it to be my research in these two classes (al-Muntaqiat and Al-Mulhamat) which contained poems represented the age that poetries lived in the Pre-Islamic and Umayyad age, the research has been divided in to preface and two topics, in the preface I definded the owner of Al- Jamhara , and the study has taken the technical construction in to two topics , the first topic came to show the Tallal introduction to the owners of Al-Muntaqiat and Al Mulhamat , as for the second topic , it was entitled the spinning introduction to the owners of the two classes, the research concluded with it's findings, in addition to a list of sources and references , and a summary in the Arabic and English languages.

Key words : Al-Muntaqiat , Al-Mulhamat , Al- Jamhara.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنام والمرسلين محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين)

وبعد ....

تعدَ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي من أهم كتب الاختيار ، تـــــلي في المنزلة المفضليات والأصمعيات من حـــيث احتواؤها على تسع وأربعين قصيدة كاملة ، لثلاثة وعشرين شاعرا من الجاهليين ، وستة عشر شاعرا من المخضرمين ، وعشرة شعراء من الإسلاميين ، مقسما الى سبع طبقات ، وكل طبقة تضم سبعة شعراء ، متناولا في كل طبقة قصيدة واحدة لكل شاعر ، خلافا لما ذهب إليه ممن سبقه في المفضليات والأصمعيات ، وهذا لا يعني انتقاصا من الجمهرة ، بل تعد من أهـــم كتب الاختيار التي حفظت لنا نخبة من القصائد التي تعد عيون الشعر العربي القديم ، و من ضمنها قصائد المنتقيات والملحمات ، موضوع هذه الدراسة حيث امتازت هذه القصائد بميزات فنية جعلتها مثالا للأدب وحيويته الذي تكاملت فيهما عناصر البناء الفني ومقوماته في حفظ وجود الشعر ، فضلا على أنها أفضل أداة يعبر بها عن حياة الأمة في العصرين (الجاهلي والأموي) ، محاولا الموازنة بينهما والكشف عن براعتهما من حيث البناء الفني لقصائدهما ، فكان موضوعي (البناء الفني في قصائد المنتقيات وقصائد الملحمات في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي) ، من هنا قسم البحث إلى تمهيد و مبحثين .

اشتمل التمهيد على التعريف بصاحب جمهرة أشعار العرب أبي زيد القرشي .

أما المبحث الأول فقد اشتمل على المقدمة الطللية ، أما المبحث الثاني فتضمن المقدمة الغزلية ، تعقبه خاتمة ، أورد فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث . وانتهى بأسماء المصادر والمراجع المعتمدة .

ولعل تلك المحاولة ترتقي إلى طموح القارئ ومن الله السداد والتوفيق .

التمهيد :

* التعريف بصاحب الجمهرة :

هو أبو زيد بن أبي الخطاب المعروف بالقرشي ، وتعد وفاته مشكلة خلافية بين القدماء والمحدثين لعدم توفر الأدلة الكافية التي تدلنا على مكان ولادته ووفاته ، وقد ناقش الدكتور على الهاشمي محقق كتاب الجمهرة هذه المسائل نقاشا مطولا ، وعرض أقوال القدماء والباحثين ، وعرض آراءهم ذات العلاقة بحياة هذا الرجل .

وقد عرض أقوال كل هؤلاء ، مستعملا بذلك أدلة داخلية وخارجية ؛ ليبرهن وفاة القرشي ، حيث أنّ الدليل الداخلي ، معتمدا الأسانيد في متن الجمهرة ، حيث اتخذها دليلا ليبرهن وصوله إلى سنة وفاته على سبيل التقريب ، وتبدي له أنّه توفي في حدود سنة ٣٠٠ هـ ـ ٣١٠ هـ ، أما الدليل الخارجي ، هو أنّ أول من ذكر أبو زيد القرشي وجمهرته هو أبــو علي الحـــسن بن علي المشهور بابن رشيق القيرواني ، والمولود في أواخر القرن الرابع سنة ٣٩٠ هـ ، والمتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، أو ٤٦٣ هـ ، وهذا يعني أنّ الكتاب ألف قبل عصر أبن رشيق القيرواني .

وقد رجح الهاشمي أنّ القرشي من رجالات القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهذا يعني أن ترجيحه جاء متناسبا مع ممن سبقه إليه الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، إذ بين أنّ القرشي من رجال القرن الرابع الهجري[١] فضلا على أنّ الدكتور شوقي ضيف ذهب ما ذهب إليه ناصر الدين الأسد[٢] .

كما أنّ بعض المصادر ذكرت بأنّ القرشي توفي سنة ١٧٠ هـ ، فمن هؤلاء سركيس ، حيث يقول :" أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي المتوفي في حدود ١٧٠ هـ ، جمع في كتابه جمهرة أشعار العرب ، في صدر الكتاب مقدمة انتقادية في الشعر واللغة والمقابلة بين لغة القرآن وأقوال الشعراء ، في الشعر والشعراء "[٣] .

وهذا يعني إشكالية حياة القرشي لا زالت قائمة رغم أنّ الباحثين قد توصلوا إلى نتائج مقبولة في هذا الاتجاه ، ولعل هذا الأمر يرجع إلى نسخ في المخطوطات الأدبية غير محققة ، كما أنّ التبحر في هذا المجال يتطلب دراسة مفصلة تمكننا من حل إشكالية الولوج في آفاق متبعثرة في حياة هذا الرجل التي سكتت عن ترجمته كتب التراجم المختلفة .

المبحث الأول

* البناء الفني

* المقدمة الطللية[٤]:

المقدمة الطللية جســـدت مكانة عالية فـــي الشعر العربي ، و ارتبطت بالبناء الفني الذي عرف عند الشعراء الجاهلـــيين خلال الوقوف عــلى الأطلال وبكاء الديار وذكر الأحبة والــدمن والتشبيب والنسيب ووصف الرحلة ، حتى يصل الشاعر إلــى الغرض الأصلي من القصيدة الشعرية ، غير أنها تعد من أهم المقدمات التي يلج خلالها الشاعر الجاهلي إلى آفاق البنية الفنيـــة للقصيدة ، فإنها مركز قوة وجمال ليحسَ المتلقي قوة ورتابة الشعر القديم ويتذوقوه ، وفي ذلك ما جاء في الشعر والشعراء لابن

قتيبة قائلا : " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أنَ مقصد القصيد إنما ابتدأ فيه بذكر الديار والدَمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الرَبعَ ، واستوقف الرفيقَ ، ليجعلَ ذلك سببا لذكر أهلهل الظاعنين عنها "[٥] .

و يبدو أن المقدمة الطللية تعد جزءا رئيسيا في القصيدة العربية ؛ لارتباطها بأمور نفسية لـــدى الشاعر الجاهلي ، وبهذا عني الشعراء بالأطلال وبدأوا يرسمون أماكـنها وحدودها بالشكل الدقيق على الورق ، خوفا من انـدثارها عبر الازمان ، فهي تدور عادة حول أطلال الحبيبة الراحلة ، التي عفت واقفرت بعد رحيلها ، وما يراه صاحبها فيها آثار الحياة الماضية التي كانت تدب فيها أيام كانت آهلة بأصحابها ، قبل أن تتحول بعدهم إلى مجرد أطلال مقفرة موحشة ، فتهب عليها الرياح فتخفي معالمها ، وتسرح فيها اسراب الحيوانات الوحشية فتصبح ملاذا آمنا لها[٦] .

كما أن **ابن رشيق** بيَن رأيه في الطلل ، حيث يقول :" مقاصد الناس تختلف ، فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ، وتوقع البين والإشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومر النسيم "[٧] ، فقد رأى ابن رشيق فكرة ذكر الديار قديما هي صفة أصحاب البادية ؛ لأنهم في تنقل دائم ، فأجبرتهم الظروف قول الشعر الذي تهواه أنفسهم بذكر الديار التي غادرتهم دونما عودة ، خلافا للحضر فإنه يرى ذكر الحضري للديار إلا مجازا ؛ لأنَ الحاضرة لا تنسفها الرياح ولا يمحوها المطر[٨] ، ولكن ليس كل من ذكر الأطلال وقف عليها " فثمة شعراء وقفوا على أطلال حبيبات في قصائدهم لا يصلح ظرفهم البيئي أو الشخصي لبعث القناعة بأنهم مارسوا ذلك على وجه الحقيقة كشعراء المدن "[٩] .

غير أنَ الأطلال عدَتْ " ترجمة لا شعورية للرغبة في الخلاص من ظرف حضاري متهدم والتحول إلى مرحلة حضارية أرقى "[١٠] ، وهذا يعني بأن الطلل الباب الذي يلج خلاله ا لشاعر إلى آفاق الماضي السحيق ؛ ليبين لنا صورا من ذكرياته الجملية التي عفى عليها الدهر ليضعها أمام واقعه المتأزم ، ليتحول الى مرحلة حضارية أرقى .

والمقدمات الطللية لها وجود في البنية الشعرية من القصائد العربية ، وعند شعراء المنتقيات ، وقد ظهر الأمر جليا في منتقاة المرقش الأصغر ، حيث تركت المقدمة الطللية في ذات الشاعر ذكريات لا تكاد أن تخلو من الألم والحسرة ، حيث ترك أناس قد ملأوا قلبه بحبهم ، فقد اضحت ديارهم ذات حياة بهم ، بيد أنها اقفرت بعد أن غادروها ، ولم يقطنها سوى الحيوانات برحيلهم ، حيث أنَ هذه الأمور قد تركت صراعات داخل نفسه حتى فاضت في نفسه مشاعر الحب بحسرة الفراق ، فيما ادى به الحال إلى أن يعبر عن آلامه وصراعاته الداخلية شعرا موظفا إيها في مقدمة منتقاته ، حيث يقول في أولها : (بحر الطويل)

أمِنْ رَسْمِ دارٍ دمع عينيكَ يَسْفَحُ ؟ غدا من مقامِ أهلُه وتروحوا

تُزَجِّي بها خُنْسُ الظباءِ سِخالَها جآذرها بالجوّ وردُ وأصبح[١١]

ترك في تلك الديار صراعاته القائمة في نفسه ، فهو يصارع الاشياء من البيئة الطبيعية المحيطة به ، التي تعد مصدر قلق وإزعاج من دون سكون في قرارة ذاته المتألمة ، بعد ان رأى الديار قد اقفرت من ساكنيها ، إلا أنّه لم يقف يائسا أمام هذه الأطلال

البالية ، فقد رأى ثمة حياة أخرى في هذه الأطلالهي رمزية حياة الظباء. بأنّ الحياة على الرغم من قساوتها فإنها ما ممكن أن تنهي أسباب الحياة ، وما هو موجود فيها .

بعدها ينتقل الشاعر إلى صراع جديد ، لا إلى ما يتعلق بالحياة والفناء ، وإنما يتعلق بغزله ، حيث يقول :

أمِنْ بنتِ عَجْلانَ الخيالُ المطرّحُ؟ ألمَّ ورَحْلي ساقـــطُ مُتَزَحْـــزِحُ

فَلَمّا انْتَبَهنا بالفَــلاةِ وراعنـــي إذا هو رَحْلي ، والفـــلاةُ توضَّــحُ

ولكنّهُ زُوْرُ يوقـــظُ نائمـــا ويُحْدِثُ أشجـــانا لِقلبكَ تَجْـــرَحُ

بكل فـــــلاةٍ يَعْتَرِينا وَمنْـــزِلٍ فَلوْ أنّها إذ تُدْلَجُ اللـــيلَ تُصْبــحُ

فَولَّت وقد بَثَّتْ تَبَاريحَ ما تـــرى ووجْدي بها ،إذ تَحْدُرُ العينُ، أبْرَحُ

وما قهوةٌ صَهْباء كالمسكِ ريحُها تطان على الناجودِ طَوْرا وتُنـــزَحُ

تَوَتْ في سِباءِ الدَّنّ عشرينَ حِجّة يطـــانُ عليـــها قَرْمَدُ ، وتُـــرَوَّحُ

بأطيب من فيها إذا جئتُ طارقـــا من الليل بل فُوها ألَـــذُّ وأنضـــحُ(١٢)

إذ تجسد صراعه مع الأنسان الذي أحبه ، ولم يبقَ له سوى خيال بعيد مع حبيبته هند بنت عجلان ومتزحزح عن آماله وهيامه ،حتى اشتد وجده وأخذ يتألم على ما فقده في زمان اندثر فيه كل ماهو جميل عنده سوى خيال معشوقته وما جمعهما من علاقة طيبة ، بيد أنّ الطيف عندما راعه فانتبه فلم يجد إلا رحله وبدت له الديار أنها قد خلت ممن شغفه حبا ، ورأى الاطلال قد عافها كل من قطنها حتى خلت من ساكنيها إلا الأثار وطيف معشوقته.

بذلك فأنّ الشاعر يقيم لنا علاقة بين الأطلال وذكر الطبيعة والديار وبين معشوقته التي غادرته جسدا ألا أنّها لم تفارقه حسيا لطالما في جسده نفس الحياة ، وبهذا يبين أنّ الديار قد بقت آثارها التي دلت على وجود أناس قد سكنوها سابقا ، الأمر ذاته مع محبوبته ؛ لأنّ كل ما موجود من آثار يذكره بها ، ولم يبقَ له من كل هذه الأطلال إلا خيالها وطيفها ، وبذلك قد استرجع الشاعر في مخيلته كل لحظات الحب التي قضاها مع حبوبته هند ،

ثم ينتقل الشعر إلى ذكر الحصان ؛ بوصفه رمزا للقوة يعبر بها الجاهلي ، حيث جعل الشاعر الحصان ملتقى قوة من خلاله يصارع الحياة ، ليثبت وجوده أمام الناس على أنّه شجاع ذو قوة ، فذكر الشاعر للحصان أنما هو وسيلة للتعبير عن صراعاته ، حيث يقول :

غَدَونا على ضافي العَسيبِ، مُجلَّلٍ طَوَيْنـــاهُ حتى آلَ ، وهو مُـــلَوَّحُ

أسيلٌ نبيلُ ليـــس فيه معابـــةٌ كُمَيْتُ ، كلون الصِّرْفِ، أرجَلُ ،أقْرَحُ

على مثله تأتي الـــندى مخـــايلا وتغـــمزُ سِرّا : أيُّ أمريْك أفلـــحُ

وتسبقُ مَطِرودا، وتلحَقُ طـارِدا وتخـــرج من غم المضيق ، وتَمْرحُ

تَراهُ بِشِكّاتِ المُـدُجَّجِ، بعدمـــا يُقْطِّـــعُ أقرانَ المُغيرَةِ ، ويَجْمَـــحُ

يَجُمُّ جُمومُ الحسي جاشُ مَضيفُهُ ويَرْدي به من تحتُ غَيْلُ ، وأبْطَـــحُ

شَهِدْتُ به في غارةٍ مُسْبَطِـــرّةٍ يُطاعِنُ أولاها سَواءً ، ويَطْـــــــرَحُ(١٣)

نجد أنّ الشاعر قد يصارع من أجل البقاء ، مصورا لنا حاله على فرس طويل الذيل مُجلل محجل ، وهو في حالة كر وفر ، مرة إذا طور سبق إذا، وإذا طارد لحق على حصان ذي قوة وبؤس ، حيث أنّه جامع لكل صفات القوة والنشاط ، ومستنفر ليثبت وجوده أمام الناس قوي كقوة حصانه وفارس شجاع يستطيع أن يباسل في المعركة ويبلي بلاء حسنا.

ويبدو أنّ الشاعر احتاج كل هذا التوصيف ليـــبن بأنّه مستعدا لأية مصيبة تقع عليه ، حتى يحافظ على حياته وعياله وقبيلـــته ، حيث جعل من الفرس مصدر قوة ليجابه صعوبة الحياة ؛ لأنّ الفرس يعد ملتقى عند الشعراء الجاهليين ، حيـــث أنّ الفـــرس و الناقة قديما كانت تدل على الحياة ولا سيما الفناء ، وبهذا فان الانسان إذا أراد أن يعيش في مجتمع قائم على الحروب والصراع القبلي فلابد من أن تكون لديه الفرس وعدوه حتي يصارع من أجل البقاء.

بيد أنّ قصائد المنتقيات بمقدماتها الطللية بينت أنماطا من الحياة الجاهلية ، كما في قصيدة المرقش الأصغر ، التي بينت لنا الصراعات القبلية في المجتمع الجاهلي، حيث أنّ الشاعر يبدأ قصيدته ببناء هو يختاره ثم ينتقل بعد ذلك إلى أمور قد استمدها الشاعر من واقعه البيئي من المجتمع الجاهلي ليبن لنا بعد ذلك الحياة الاجتماعية في عصره آنذاك.

ومن الذين افتتحوا قصائدهم بالمقدمات الطللية من شعراء المنتقيات الشاعر المتنخل الهذلي، حيث قدم الشاعر قصيدته بمقدمة طللية بقت في مخيلته إلى زمن بعيد ، حيث استعمل الشاعر الماضي كبداية لصيغة قوله بـ (عرفت) دليلا على أنّ الحدث وقع معه بزمن ليس بقريب قبل قول القصيدة، حيث يقول : (بحر الوافر)

عرفت بأجدث، فنعافِ عرقٍ، علاماتٍ كتحبيرِ النَّمـــاطِ

كَوَشْمِ المِعْصَمِ المُغتالِ غُلّتْ رواهِشُه بِوَشْمٍ مُسْتَشاطِ(١٤)

فقد بين الشاعر في هذه المقدمة عن أمور قد حصلت له في حياته ، وكذلك ليعّرف الآخرين من الذين يدعون بأنّه قد كبر وفقد قوّته وهو ما انفك بكامل قواه ، وعلى علم ودراية كاملة بالديار والاماكن والطرق التي سلكها مذ القدم وكيف السبيل إليها.

كما أنه قام حوارية بين ذاته ليجعل من نفسه إنسانا آخرا يعاذله ، حيث أنه يستفهم استنكارا ليجيب على ما بنفسه من ألم وغصة تخض كيانه ، وهو في سن قد غزا الشيب مفرقه ودنا أجله ، حيث يقول :

وما انت الغداةَ وذكرُ سلمى ؟ وأمسى الرأس منك إلى اشمطاطِ(١٥)

وكما يبدو أن الشاعر يستفهم في نفسه حيث يقول كيف لك أن تذكر سلمى ؟ وانت في هذا السن وهو سن الوقار ، وبهذا فقد ذكر

الشاعر معشوقته سلمى ، ووجد عليها ، فأخذ يذكر ما عاشه في أيام شبابه، ليجد في مكنوناته ما يثبّت به نفسه أمام هذه الامرأة ، فاخذ يصف جمالها كأنها الحور شديدة بياض الحدقة وحسنة القوام وطويلة العنق ، ودمها صاف ونقي كدم العباط[١٦] .

من تلك المقدمات وصف الخمرة في مجالس الشرب ، إلا أنّه لم يسهب في ذلك فاكتفى بوصف ناجود الخمر ، إنّه من أعاجم نبط الشام ، وإنّه ذو شعر جعد ، حيث يقول :

يمشي بيننا ناجود خمر مع الخرس الصراصرة القطاط[١٧]

ويعد هذا البيت منفذا تعبيريا لوصف الخمرة التي ذكرها بأنها صافية قليلة المزج كعين الديك صهباء ، وريحها كريح التفاح ، حيث يقول :

رَكولٌ في الإناءِ لها حَمَيّا تَلَذُّ لِلأخذها الأيْدي السَّواطي

مُشُعْشَعَةٌ، كعين الدّيكِ ،فيها حُمَيّاها، من الصُّهبِ الخماط[١٨]

ويبدو أنّ المتنخل يريد أن يورد لنا الأحداث بطريقة سردية مشوقة لما يعيشه في مجتمعه قديما ، فهو ينتقل من مكان إلى آخر ، حتى لا يدع لنا شيئا إلا أن يصوره بصورة حسية يدرك من خلالها القارئ صورة المجتمع الجاهلي وبيئته .

إذ انتقل مباشرة من وصف الخمرة إلى وصف كرمه وشجاعته ، فلا ينادي الحيَّ ضيفه بعد هدوء المساءَةِ ، ولا يزعجهم ، حيث أنّه يباشرهم بمزاح وضحك ، ويبسط لهم بساطه ويطعمهم طعامه ، وعادة الاكرام اضحت لديه وصمة كعلاط البعير ، حيث يقول:

فلا أبيك ، يؤذي الحيُّ ضيفي هُدوءا بالمساءَةِ والعـــلاط

سأبْدؤهم بِمَشْمَعَةٍ ، وأثني بجهدي ، من طعامٍ أو بساطٍ[١٩]

طالعنا الشاعر بقيمة الكرم الإنسانية التي فرضتها الظروف البيئية بفعل قساوتها ، إذ عرض كرمه بكل ما يملك من قوت ، حتى وأن كانت سنته ساترة عن العطاء ، فبذلك يحفظ كل من يحيط به ضيفه أو عرضه ، حيث أنّه يمنع بكرمه أن يصاب كل من حلّ عنده ضيفا بمكروه ، فتراه كريما طيبا دونما تحرج أو ورطة ،حيث يقول :

إذا ما الحَرْجَفُ النّكْباءُ تَرْمـي بُيوتَ الحيّ بالورقِ السِّـــقاطِ

فأعْطي غيــرَ مَنْزورٍ تِـــلادي إذا التطَّتْ لَدَى بخـلٍ لَطـــاطِ

وأحفظُ مَنْصِبي أصونُ عِرْضي وبعضُ القومِ ليس بذي احتياطِ

وأكسو الحُلةَ الشوكاءَ خِـــذْني وبعضُ القومِ في حــزن وِراطِ

فــهذا ثم قد عَلِموا مَكانـــــي إذا قال الرقــيب : ألا يعـــــاط[٢٠]

ويعرض الشاعر صورة الفخر بشجاعته بوصفها قيمة ذاتية عليا في قوله :

وعادِيَةٍ ، وزعتُ ، لها حَفيف، حفيفَ مُزَبِّدِ الأعْرَافِ، غاطي

تُمْـــدُّ لهُ حوالِبُ مُشـــنْعَلاتُ يُجَلِّلُهنَّ أَقْمَرُ ذو انعطـــــاط

فأبْنا بِالســـيوفِ مُفَلَّـــلاتٍ بِهنَّ لفائِفُ الشـــعرِ السِّبـاط

بِضَرْبٍ في الجَماجِمِ ذي فُروعٍ وَطَعْنٍ مثلِ تَـعْطاط الرَّهـــاط[٢١]

لقد استطاع أن يصور لنا صورة حية مليئة بالحركة ، فقد كان قادرا على أن يتصدى لأمر صعب عصيب عليه ، حيث أنّه قد صور لنا الغارة بأنّها غارة عظيمة ذات صوت يشبه صوت السيل المزبد ، كأنّ له عرفا ، ثم ينتقل إلى صورة أخرى ، لتعظيم شأن الغارة في نفسه ، بأنّ الغارة كغيث اشتدت غزارته حتى أضحى سيلا ، فيلتقي السيل مع غزارة الغيث حينئذ تزداد سرعة جريانه ، فيصبح كغارة تجرف كل من يقابلها كسيل جارف، حيث أن الشاعر استطاع أن يوصف لنا هذه الغارة كصور حية مما يجعل القارئ يتعايش معها وكأنها صورة واقعية ، وليعظم شدة الغارة ،غير أنّ الشاعر استطاع أنْ يجابه هذه الغارة ، ويتكيف معها ، فهو كصخرة حدها السيل دون أنْ يحرك ساكنا منها، حيث يقول :

وماءٍ قدْ وردت ،أميمَ صافٍ على أرْجائه زَحَلُ الغطـــاط

فبِتُّ أنَهْنِهُ السرحانَ عنـــه كلانا وارِدٌ حَـــرَّانَ ساطي

قليـــلٍ وِرْدُهُ إلا سبـــاعا يَخطْنَ المَشْيَ كالنبلِ المراطِ

كأنَّ وغى الخموش بجانبيـهِ وَغَى ركْبٍ أُميـــمَ ألي زِياطِ

شربتُ مَزاحِفَ الحَيَّاتِ فيـــه وأبيض ،صارمٌ، ذَكَرٌ إبـاطي[٢٢]

فالشاعر بدأ يشعر شعورا بائنا من أنّ حياته بدأت تحاكي أمتعتها للرحيل بعد أن طوت أيامه السنين وكبر سنه ، فبدأ يسرد لنا وقائعه وما حصل معه في أيام شبابه من بطولات ، ليدلل بذلك على أنّه رجل مواقف ، وليبرهن على أنّه بطل وأن تقادم به الزمن ، فهو لازال شامخا يقهر الحياة بصبره أمام النوازل بعلو همته وشجاعته التي يتمتع بها ، وهذا ما اوحت به أبياته السابقة من خلال استطراده التشويقي الذي اسس هدفا رغم تنوعه ، ألا وهو القوة والمقدرة على قهر الصعاب والتغلب عليها ،و قد علق شارح أشعار الهذليين أبو سعيد السُّكّرِي على هذا البيت، قائلا :"هذا بيت القصيدة، ما أحسنَ ما وَصَف"[٢٣].

ثم انتقل ليصور لنا صليل سيفه ، ليذود نفسه ، والذين ينزلون عنده ضيوفا ، حيث يقول:

شربتُ بجمه ، وصدرت عنه ابيضُ صارمٌ ،ذَكَرٌ ، إباطـي

كَلَوْنِ الملحِ ، ضربته هَبـــيرٌ يُتِرُّ العَظْمَ ،سقاط سُـــراطِ

به أحمي المُضافَ إذا دعاني ونفسي ساعةَ الفَزَعِ الفِلاطِ[٢٤]

حيث سرد لنا الشاعر الحديث عن بسالته وشجاعته ، بأنّه فارس لا يقهر رغم الظروف والحياة العصيبة ، إلا أنّه يقاسي كل ما يمرّ به دليلا على ما يمتلكه من قوة وشجاعة ، حيث أنّه يصور لنا قدرته على بلوغ الصعاب حتى أنه بلغ مرقبة رغم ارتفاعها من على الأرض دون أن تزل قدماه ، في الوقت ذاته تزل فيه دوارج الحجل في بلوغه ، وبهذا يبين لنا الشاعر صورة تدل على قوته وشجاعته في مواجهة الأمور دونما صعاب ، حيث يقول :

ومرقبةٍ نَمْيتُ إلى ذراها تُزِلُ دَوارِجَ الحَجَل القواطي [٢٥]

ثم ينتقل ليصور لنا قوسه ، حيث يصفه بالحمرة والصلابة ، ونصالها كالأقراط في لمعانِها ،كما أنّ صوتها كصوت النحل عند انطلاقها ، ولها نصال قوية ، فهي كأدبار النحل إذا ولّت راجعة ، وليست طويلة ، فلم تطل حدا ، وهو اجود لها ، حيث يقول:

وقانِيةِ البُرايةِ ، فَـــرْعٍ ضـــالٍ كوقف العاج ، عاتكة اللياط

شفَعْـــتُ بها مَعابِـــلَ مُرْهَفاتٍ مُسالاتِ الأغرَّةِ ، كالقــراط

كَأوْبِ النّحْلِ ، غامِضَةً ، وليست بِمُرْهَفَةِ النِّصالِ ، ولا سلاط[٢٦]

وفي ختام قصيدته نرى أنّ الشاعر قد ختم قصيدته ،مثبتا أنّه قطع صحراءً ليس فيها مقومات العيش دونما خوف ، حتى أنّه سمع فيها عزف الجن وقاوم حر الشمس اللاهب ، حيث أنه شبه الحر وما ينبعث عنه كالسراب بلملاحف البيض إذا جرى لشدته ، إلا أنه كأمثال العصي، فقد قطع تلك الفلاة الرهيبة بالفتية البيض الخفاف سريعي الحركة والعدو ، حيث يقول:

وخَرْقٍ ، تَعْزِفُ الجنّان فيه مُنَشرَّةً ، نُزِعْنَ عن الخِياطِ

أجَزْتُ بفتيةٍ بيضً خفاف لهم عَدْوٌ على ظَهْرِ البَـلاطِ

فآبوا بالسّيوف ،بها فلول كأمثالِ العِصيَّ من الحَماطِ[٢٧]

ومن هنا يتسم الشاعران في منتقاتهما بالحزن والكآبة ، بفعل سرعة دوران الزمن الذي أفضى إلى فراق الأحبة ، في ذلك يقول الدكتور حسن عزة :" وكأننا بالشاعر حين يقف بالديار ، ويجيل نظراته في أنحائها ، ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء ، وتظل قائمة تثور في نفسه الذكرى فيعود بخياله إلى أيام حياته السعيدة التي قضاها في هذه الربوع على وصال مع احبته ، فتتبر هذه الذكرى في نفسه الشاعر الألم والحزن "[٢٨].

أما **المقدمة الطللية** عند أصحاب المنتقيات فلا تختلف كثيرا عند ممن كتب في الطلل من شعراء المنتقيات ، غير أنّ ظاهرة الطلل في العصر الأموي " تدل دلالة قاطعة على أنّ الشعراء جميعا سواء كانوا يخوضون في موضوعات قديمة استقرت صورتها واستوت تقاليدها ، أو كانوا ينهضون بموضوعات جديدة لم تماثل صورتها ، ولا استقامت خصائصها لم يحيدوا عن التقاليد

المرسومة ولا حاولوا استحداث تقاليد تغيرها وتقف بجانبها . فهم رسميين وذاتيين ، مقلدين ومجددين كانوا دائما يعودون إلى الأطلال الثابتة ولا يزالون ينظرون فيها ويستغلون صفاتها ومميزاتها ....."[٢٩].

بيد أنّ التطور الشعري في العصر الأموي قد حصل في بعض الأغراض الشعرية و دفعتهم إلية الحياة المختلفة الجديدة عن الشعر الجاهلي التي انتقل إليها العرب ، فنشأ في ذلك مذاهب جديدة في مجال الادب ، فقد عرف في العصر الأموي ما يسمى بالغزل العذري والغزل الصريح ، من هنا نتجه لنعرف وقوف الشعراء على الأطلال في مقدماتهم مزجها بذكريات الحبيبة والتغزل بها .

ويبدو ذلك في مقدمة أحد شعراء الملحمات ، إلا وهو "ذو الرمة " أحد شعراء العصر الأموي من الذين مثلوا تيار الغزل العذري ، وهو من الشعراء" الذين عاشوا في بوادي جزيرة العرب أيام العصر الأموي ، واختصوا بالغزل وحده من بين أغراض الشعر المعروفة حينذاك، وكان هؤلاء الشعراء كلُّهم عشّاقا هائمين ، حُرِموا الوصال مباهجّه ، فحاروا في الهوى وضاعوا"[٣٠] ، وكل ما انماز به الشعراء الغزليون " أنّ مقدماتهم الطللية تصور مجالس لهوهم ومعاهد شباهم التي كانوا يلتقون فيها بمحبوباتهم ، أولئك اللائي شغل وصفهن ووصف ذكرياتهم معهن الموضوعات الأساسية لقصائدهم الغزلية ، مما جعل مقدماتها مرتبطة بها "[٣١] .

كما أنّ نفوسهم تتعلق بكل شيء يذكرهم بأحبتهم، ويحفز لديهم كل ما يثير الشوق والصبابة ، وتأجج الذكريات أكبر من أي أمر آخر له علاقة بالمرأة العشيقة ، مما استشار في نفوسهم عطف عظيم ، حيث القى بهم ذلك الميل إلى المنازل والديار ، في ذلك حسن عزة[٣٢] يقول : "وقد القى هذا العطف على شعر هؤلاء الشعراء في شعر الوقوف على الأطلال ظلالا كثيفة بين اللهفة والحنين ، وجعلهم ينادون الديار ويُحيُّونها ....." ، وخلال ما قدمنا له ـ في حديثنا ـ حيث تَبَيّن لنا ذلك في قول ذي الرمة ، حيث يقول: (بحر البسيط)

ما بالُ عَيْنِكَ منها الماء يَنْسكبُ كأنّه من كُلىَ مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

وَقْراء، غَرْفِيَّةٍ، أثْأى خوارزها مُشَلشِلُ ضَيَّعَتْهَ بينها الكُتَبُ[٣٣]

ونتيجة لما فقد الشاعر ، فيبين لنا وضعه وهو يبكي بكاءً حارا ، كما لو الماء ينسكب لغزارته ، كأنّه من كَلى مَفريَّةٍ ، حيث يشبه الشاعر هذا الأمر لعظمته في نفسه كخروج الماء من ثقب المزادة لسرعة جريانه حتى تقرحت عيناه من البكاء ، كخزز المزادة التي تلفت وصعب اصلاحها .

وبذلك يشير الشاعر إلى الحزن والألم على ميَّةَ بسبب رحيلها وتركها إياه ، مما سبب له ذلك إذراف الدموع بغزارة ،كما أنّ الشاعر يستفهـم في ذاتـــه عن الألم والحزن الذي لـحق به ، أ هـذا الحزن من خبر جاءكم أم هـــاج فيك الشوق فحزنتم أم من الوقوف على الدِمْنِةِ التي نسفت ريح الصبا عنها ما استترت به من سواد حتى استبانت الأرض كما لو كانت كتب هبت عليها ريح

الصبا فبعثرت ما كان مدفونا، فبذلك ظهرت كل الآثار الجميلة التي تذكره بالماضي الجميل فحزن لذلك، حيث يقول :

أستَحدثَ لركبُ عن أشياعهم خبـرا أم راجَعَ القلبَ من أطرابِهِ طَرَبُ

من دِمْنَةٍ ، نسفت عنها الصبا سُفْعَا كما تُنْشَرُ بعد الطِـيَّةِ الكُـتُبُ

لا، بل هو الشوقُ من دارٍ تَخَوَّنها مرُّ السحاب ، ومرَّ بـارحُ تـرِبُ(٣٤)

فقد بيّن الشاعر حزنه وألمه وشوقه في الدار التي تخونها مر السحاب التي تطمس ما علم من آثار الديار والدوارج التي اجترت الرياح والتي تدرج وتمور بذرات التراب الدقيقة لتبين المعالم القديمة للديار التي خلت من اهلها في الحقب الماضية، وخلال ذلك طالعنا الشاعر برؤيته شعرا من خلال رمزية الطلل والتي تكللت بالحفر التي تكون حول بيت الأعراب والتي تحجز الامطار ، وموضع الوقود وموضع الحطب وغير ذلك من الآثار الملقاة أمام عينه ، وكل هذه الآثار التي تبعثرت بفعل الطبيعة تشبه جفون السيوف المنقوشة في انتشارها على الرمال ، حيث يقول:

بِبُرْقَةِ الثورِ، لم تَطمس معالمِها دوارجُ المُورِ ، والأمْطارُ ، والحقبُ

يبدو لعينيك منها، وهي مُزْمِنـةُ نُؤى ، ومُستوقَدُ بالٍ و مُحتَـطَبُ

إلى لَوائِحَ من أطـلال أحوية كأنّها خِلـلُ مَوْشِيَّةُ قُشُـبُ(٣٥)

بعدها طالعنا الشاعر بديار مية ، المتضمنة بجموع البشر ، فلا تعد من العرب ولا من العجم ، بل هي أعظم من ذلك ، حيث يقول :

دارٌ لمَيَّةَ، إذْ مَيٌّ تُساعِفُنا ولا يرى مِثلَها ، عُجْمٌ ولا عَرَبُ(٣٦)

و ينتقل إلى وصف ميَّةَ وصفا دقيقا من الناحيتين الحسية والمعنوية ، فهي بيضاء البشرة واضحة اللّبات ، ضامرة البطن ، البطن ، برّاقة ، طويلة العنق ، سمراء الشفة ، ذات رائحة طيبة ، وغيرها من الصفات الإخرى ، فضلا على أنّها حسنة الخلق ، و عفيفة ، وكريمة ، حيث يقول :

عَجْزاءُ مَكْورةُ، خُصمانةٌ ، قَـلِقٌ عنها الوشاحُ ،وتَمَّ الجسمُ والقصبُ

زَينُ الثياب ، وإنْ أثوابها استُلِبَتْ على الحَشِيَّةِ يوما ،زانها السّـلَبُ

بَرّاقةُ الجيد واللّباتِ ، واضحـةُ كأنّها ظبيةٌ ،أفضـى بها لَبـبُ

بين النهار وبين الليلِ من عَقِـدٍ على جوانبه الأغـصان والهَـدَبُ

لمياء في شَفَتَيْها حُـوَّةٌ لَعَـسٌ وفي اللّثـات، وفي أنيابها شنـبُ(٣٧)

بيد أنّه قد مزج غزله المعنوي بالحسي بصفة بدوية امتازت بالخشونة ، وكما يبدو أنّ تحسره اعادة له وصف حينيته وذكرياته التي ضاعت دونما دوام الحال على ما كان عليه ، فهو لم يحسب أنّ الأشياء تتغير وتتبدل ، ولربما الذي اعاده له ايامه هو طيف

ميّة التي شغفته حبا حين رؤيته اياها في المنام ، حيث يقول :

ليالي الدهرُ يَطْبيني ،فأتْبَعُهُ كأنني ضاربٌ في غَمْرةٍ ، لَعِبُ

لا أحسبُ الدهرَ يُبْلي جِدَّةً أبدا ولا تَقَسّم شَعْبا واحـــدا شُعَبُ

زار الخيالُ لمَيّ هاجعا ، لَعِبَتْ به التّنائِفُ، والمَــهْرِيّةُ النُّجُبُ[٣٨]

غير أنّه كان هاجعا لعبت به التنائف حتى اصبح كأرض مقفرة بعيدة لا أنيس فيها ، فأصبح ملازما لهذه التنائف وبحنبه ناقته الضامرة ، وهو في حالة تعب واعياء ، نتيجة ما فقده ، ولم يبقَ له سوى طيف المحبوبة ، حيث يقول :

مُعَرِسا في بيـــاض الصبح وَقْعــتُهُ وسائرُ اللـــــيلِ ، إلا ذاك مُنْجَذِبُ

أخا التنائف ، اغفى عند ساهمـــــةٍ بأخلف الـــدَّفِ من تصديرها حُلَبُ

تشكو الخِشاشَ، مجرى النِسْعَتينِ كما يشكو المريضُ إلى عوّادِهِ الوَصِبُ[٣٩]

حيث نلحظ الشاعر قد غرز وتده في تبيان حالته النفسية ومشاعره الصادقة ، وهي صفة اعتاد عليه شعراء هذا الفن الشعري" فكان في اهتمام شعراء الغزل العذري بالحالة النفسية في شعر الوقوف على الأطلال كما في غزلهم "[٤٠] ، والسبب هو أنّ الشعراء "ما كانوا إلى وصف الظواهر الخارجية ، والذات المادية ،وانما كانوا يقصدون دائما إلى وصف العواطف والأحاسيس النفسية التي تعذب صاحبها ..."[٤١] ، وبذلك يتضح أنّ في شعر ذي الرمة الرمزية المادية تضاءلت بخلاف النزعة الصراع النفسي الحاد قد ارتفع في شعر الوقوف على الأطلال.

وقد عرف الأخطل بذلك ، حيث أنّه استهل قصيدته بذكر الديار والأحبة والحنين الذي لم تطفأ ناره إلا بشوق الوصال ، فهو متألم لتغير منزل صاحبته (سلمى) دونما اثر يترك حتى يتمكن من الاتصال بها ، حيث أنه قد أوجز لنا الفراق الذي بينه وبين حبيبته (سلمى) في مقدمته الطللية ، كما أنّه يرى الديار قد اقفرت منها بعد أن كان ينفعل بحديثها ، فهو يراه كالدرر والذهب يتساقط من فيها عندما تتحدث وفجأة ابعد الوصال بينهما وانقطعت اخبارها ، ألا انّه بقى مجد في السير لا يدركه أحد ، فأنه كالبعير الذي يقطع الأقران ، حيث أنّه قد اصبح بدونها ممزقا مقطعا إلى أشلاء طارت بها جماعات من الطير وفرقته إلى كل اتجاه ذهبت إليه ، حيث يقول : (بحر البسيط)

تغير الرّسمُ من سلمى بأحفارِ وأقفرتْ من سُلَيْمَى دِمْنَةُ الــدارِ

وفقد تكون بها سلمى تُحَدّثُني تساقُطَ الحَلي حاجاتي وأسراري

ثم استَبَنّتْ بسلمى نِيّةٌ قَـذَفٌ وسَيْرُ مُنْقَضِبِ الأقـــوانِ مغوارِ

كأنّ قلبي غداة البينَ مُقْتَسَمٌ طارت به عُصَبٌ شَتّى لِأمْصـــارِ

ولو تَلُفُّ النوى من قد تَعَلَّقَهُ إذا قَضَيْتُ لبنـــاتي وأوطـــاري

ظَلّتْ ظِباءُ البَكّاءِ راتِـــــعةً حتى اقتُنِصْنَ على بُعدٍ وإضــرارِ[٤٢]

عمد الشاعر أن يذكر لنا الناقة في العصر الأموي امتدادا لما جاؤوا به من العصر الجاهلي ، ليخوض بها التجارب ، ويقطع بها الفلاة ، حيث أنّ الناقة امتازت بالقوة والصلابة وخبرتها بمسالك الفلاة ، وقدرتها على السهر ، حيث شبهها الشاعر بالصخرة فيجرفها السيل فتبقى في الماء ، فهي ملساء صلبة ، حيث أورد لنا الأخطل هذا التشبيه لصلابته وقدرتها على تجاوز الظروف الصحراوية ، وشبهها ايضا بالبرج لقوتها على التحمل ، حيث يقول الأخطل :

ومهمهٍ طامِسٍ تُخشى غَوائِلُــه قَطَعْتُه بِكَـــــــلُوءِ، العين مِسْهارِ

بِحُسرَّةٍ، كأتانِ الضّحلِ، أضْمَرَهَا بعد الرَّبالَةِ ترحـــالي وتَسْيـــاري

اخت الفلاةِ، إذا شُدَّتْ مَعاقِــدُها زَلّتْ قُوَى النّسْغِ عن كبداءَ مِسْيارِ

كأنها بُـــرْجٌ رومي ،يُشـــيِّدُه لُزَّ بِجَـــــصٍّ وآجُـــرٍّ ، وأحجارِ[٤٣]

وبناء إلى ما تقدم تتضح القدرة الشعرية لدى الشاعر في توظيفه الحيوانات وجعلها رمزا من رموز الصبر لامتلاكها القدرة على مقاومة الطبيعة وتقلباتها ليسقط كل الأحداث على شخصيته وما يكابده في واقعه المعيشي ، فمن ذلك الثور الذي اتخذ منه الأخطل رمزا للقوة والصلابة ، حيث يقول :

يأوي إلى جنب أرْطاةٍ تُكَنِّفُـهُ ريحٌ شاميةٌ هبّتْ بأمطـــــــارِ

يحاول ليلتَه والعيـنُ تَضرِبُه منها بغيثٍ ،أجش الرعدِ نَثـّارِ

إذا أراد التَّغميضَ ، أرَّقـــــهُ سَيلٌ، يدِبُ بهابي التُّرْبِ مَـوّارِ

كأنه ،إذا اضاءَ البرقَ بَهْجَتَهُ في اصبهانِيّةٍ ، أو مُصْطلى نارِ[٤٤]

ثم بعد ذلك يصف لنا الخمرة ، حيث أننا نرى الأمر ذاته عند شاعر المنتقيات المتنخل الهذلي عندما وصف الخمرة ، بيد أنّ الأخطل قد وصف لنا نديمها ومجلسها ،فنادم الشاعر شاربا ، بأنّه ليس بضيق الصدر وليس بالمعربد،ومربح لمن اشترى منه فينجز لأضيافه الربح ، فبقيا يشربان الخمر حتى الصباح ،وحانت وقعة الساري ، كما أنّ قوله في الخمرة فقد قال : بأنها من عانة ويسقيها الفرات، ورأى أنها حديقة وفيها جدول سريع الجريان ، حيث غطت لثلاثة اعوام ،وحين صرحت اخذت رغوتها تهدار وتغلي ،مغطاة بأغصان الورق والسوس ، فهي ليست سوداء مظلمة عملت من ارض لينة ونبتت بأرض بيضاء حرة ، ولم تعذب بإدناء من النار ولكن طال مكثها ، معصورة من عنب ابيض ولها رداءان : نسج العنكبوت والآخر من ليف ومن قار ، فالخمرة ينشدها الشاعر هربا من واقعه المؤلم فنراه يصف لنا صاحبها ، بأنه ممزق الثياب وسراويله صغيرة مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط، وهذه الصورة تجعلنا نعتقد بأنّ الأخطل مواظب على دقة التصوير وعذوبة الألفاظ في وصف الخمرة ، حيث يقول :

وشاربٍ مُريحٍ ،بالكأس نادمنـــــي لا بالحصورِ ، ولا فيها ، بســـــوّار

نازعتُه طَيّبا راح الشّمول ،وقـــد صاح الدجاجُ، وحانت وقعة الساري

من خمرِ عانةَ ،ينصاعُ الفراتُ لها بجدول صَـــــخِبِ الآذيِّ،مَـــــرَّارِ

كُمّـــــتْ ثلاثةَ أحوالٍ بِطينتـــــها حتى إذا صـــــرَّحتْ من بعد تَـهْدارِ

آلت إلى النصفِ كَلفاءَ، أثْرَعَـــــها لِـــــجٌ، ولَثَّمها بالجـــــفن والقـــارِ

ليست بسوداءَ، من ميثاء مظلمـةٍ ولم تُعَـــــذّبْ بإدنـــــاءٍ مـــن نـــارِ

لها رداءان: نَسْج العنكبوت، وقد لُـــــفَّتْ بآخَرَ من ليف ، ومـــــن قار

صهباءُ، قد كَلِفَتْ من طول ما خُبِئَتْ فـــي مُـــخْدَعٍ بين جنّاتٍ، وانـــــهار

عَذراءُ، لم تَجْتَلِ الخُطابُ بهجتـــَها حتـــــى اجـــــتلاها عِباديٌّ بدينـــــار

في بيتٍ مُنْخَرِقٍ: تراضينا على ثمنٍ ما إن عليـــــــــه ثيابٌ ،غير أطمارِ[٤٥]

ثم بعد ذلك ينتقل الشاعر الغرض الرئيس الذي قيلت فيه القصيدة إلا وهو مدح يزيد ابن معاوية ، غير أننا لم نجد صورة واضحة تدل على ذلك ، إلا أننا وجدنا فقد ارتفاع قوم الممدوح مدحا في قصيدته ، مما يجعلنا نعتقد بأن نقول : إنّ الأخطل كان معجبا في يزيد بن معاوية من خلال رغبته به على اللهو والخمر ، وليس على بطولاته ، ولا على قيادته العظيمة ، فقد جاء مدحه مخخا على الجوانب الفنية في نظم القصيدة ، وبراعته في الوصف والمدح .

وما نستنتجه من أنّ أصحاب المنتقيات وأصحاب الملحمات قد أخذ البكاء عندهم شكل الطقوس الجماعية ، حيث أصبح العقل العربي مشغولا بمشكلة الموت الذي يتجسد في الطلل ، عندما كان بالأمس دار عامرة بالبشر وصناع الحياة ، وإذا بالرحيل فجأة يأخذ كل شيء ولم يبقَ منها سوى الطلل البالي والذي يعج بالأثافي والذكريات الجميلة التي عاشها الأنسان البدوي آنذاك ، فانغمست فكرة الرحيل شعور الأنسان البدوي الفنان بالحياة ، وجعلته يؤمن بأن العنصر المستمر الذي يغني الحب والحياة ، حيث وجد النؤى والأثافي والأحجار كل أولئك اشبه بالعظام النخرة من خلالها يجد دائما موضوعه أمام عقله حيثما التفت فهي الحياة ، وهذه الأطلال تجعله يبحث دائما لكي يستوثق من أنّه موجود .

المبحث الثاني

* المقدمة الغزلية :

تضمن الشعر العربي الغزل والنسيب والتشبيب مع تباين الدلالة خلال آراء الأدباء واللغويين .

فما جاء في معجم الوجيز[٤٦] لفظة (الغزل) والتي تعني " غَزَلَ الصوفَ أو القطن ونحوهما- غَزْلا: فتلَه خُيُوطا بالمغزل. غَزِلَ- غَزَلا : شُغِفَ بمحادثة النساء والتودد إليهن، فهو غزل و(غازل) المرأةَ: حادَثَها وتودَّدّ إليها . و(تَغَزّل) بالمرأةِ: ذكر محاسِنَها

ووصف جمالَها ". وجاء في موضع آخر : "نَسَبَ الشاعر بفلانة ـ نسِيبا ، ومَنْسِبا: عَرَّض بهواها وحُبِّها"[٤٧] . وفي موضع ثالث : "شَبَّبَ الشاعر : ذكر أيام اللهو والشباب وبفلانة: تَغَزَّلَ بها ووصف حُسْنَها"[٤٨].

كما أن الغزل والتشبيب قد جاءا مترادفين عند الجاحظ ، حيث يقول :" فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكافوا القول في الشبيب "[٤٩]، أما من الأدباء فقد رأى أبن رشيق في كتاب العمدة : الغزل والتشبيب والنسيب فهي كلها في موضوع واحد ألا وهو الحب والتودد ، فيقول :" النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ..... وأما الغزل فهو إلف النساء "[٥٠] ، ولهذا سآخذ بآراء القدماء من اللغوين والأدباء على أنّ جميعها تدل على الغزل ، بالإضافة إلى أنّ لفظة الغزل أخف على اللسان نطقا .

بيد أنّ الغزل فن كبير في الشعر الجاهلي ، فهو لغة العاطفة الجياشة لدى الشعراء ، حيث صوروا فيه وجدهم اتجاه المرأة فيما يجدون فيها البعد أو الوصال ، كما أنّهم صوروا فيه السعادة، فقد ولجوا من خلال الغزل إلى آفاق المحبوبة التي تركت فيهم الأثر الطيب ، لذا فإنهم أحاطوا على الحبيبة بالأوصاف التي جعلت منها كالياقوت والمرجان ، وصوروا ايضا آمالهم وآلامهم من خلال هذه المقدمات، لذا فقد عرف فن الغزل بأنّه فن كبير بامتياز ، على اعتباره لا يمثل "لوحة سطحية تقليدية يجاري فيها الشاعر على غيره من الشعراء كما يزعم الكثير من الباحثين، وانما هي جزء حي وأصيل من تجربة الشاعر التي عبر عنها برؤى الفنان"[٥١]، ويقول الدكتور حسين عطوان :" افتتح الشعراء الجاهليون قصائد كثيرة كثرة مفرطة بالمقدمة الغزلية . تتألف هذه المقدمة من الحديث عن صد المحبوبة وهجرها أو بعدها وانفصالها ، وما يخلفه الهجر والمطل والفراق من تعلق شديد ، وشوق مستبد ، ودموع غزار يسكبها الشاعر حسرة وألما ولهفة ، وسرعان ما تفد على خاطره أيامه الماضية السعيدة ، وذكرياته الحلوة الجميلة ، حين كان يلتقي بمحبوبته ، ويبوح كل منهما لصاحبه بحبه ويبادله إعجابا بإعجاب ، وشوقا بشوق . حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى يصف محاسنها ومفاتن جسدها وهو وصف التفتوا فيه الى المحاسن الجسدية أكثر من التفاتهم للمحاسن المعنوية ...."[٥٢] .

وهذا يعني أنّ المقدمة الغزلية قائمة على صنفين هما: وصف حسي ووصف معنوي ، كما أننا نلتمس هذا القول في رأي الدكتور يوسف خليف ، حيث يقول :" تدور المقدمة الغزلية عادة حول موضوعين : وصف الحبيبة وصفا حسيا أو معنويا ، والتغني بجمالها الجسدي أو النفسي من ناحية ، وتصوير عواطف الشاعر ومشاعره لها ، وما تجيش به نفسه من حب وفتنة ووجد ولوعة وهيام وحنين وأمثال هذه الانفعالات التي تملأ على العشاق نفوسهم ـ من ناحية أخرى "[٥٣] .

وكما يبدو أنّ الكلام عن المرأة في الشعر العربي مذ العصر الجاهلي له مساحة واسعة ، حيث أنّ قصائد الشعراء كثير ما تفتح بالنسيب ، غير أنّها امتزجت وتلونت بألوان مختلفة ، كما في قصيدة أحد شعراء المنقيات ـ دريد بن الصمة ـ حيث أنّه قد بدأ مرثيته بضرب من النسيب يلائم الرثاء فقد حظى الغزل التمهيدي بخطوة مهمة في المراثي لدى شعراء العصر الجاهلي ، لما فيه

من عطف واستقبال بحسب كوامن النفس من حب الغزل .

فالشعراء قديما حرصوا على شد انتباه المتلقي عن طريق الغزل التمهيدي ، ومن ثم الدخول الغرض الرئيسي ، وما نلحظه في قصيدة دريد هو أنّ الشاعر " قد بدأ مرثيته لأخيه بضرب من النسيب يلائم الرثاء ، وهو خلف الحبيبة وبينها . ثم اعرب عن فداحة رزئه ، وذكر ما كان من نصيحته و إنذاره قومه بأعدائهم ، وعصيانهم أمره ، ثم تناول مقتل أخيه وولهه لذلك ، ووصف أخاه بالشجاعة والجود والمضاء والصبر وحزم الشيوخ . وذكر أن مما هون وجده على أخيه أنّ دريدا كان لا يكذب له أمرا ولا يضن عليه بما يملك . ثم صور مصرع أخيه وجزعه عند ذلك ، وذكر أنّه لم يتركه دون أنّ يناضل عنه أصدق نضال ..."[٥٤] ، حيث يقول : (بحر الطويل)

أرَثّ جديدُ الحبلِ من أمّ مَعْبَـــدِ بِعاقبةٍ قد أخلفت كـــلَّ موعِدِ

وبانت ،ولم أحْمَدْ إليك وصالَها ولم ترجُ فينا رِدَّةَ اليومِ أو غدِ

فطاعَنَتْ عنه الخيلَ حتى تَبدَّدَتْ وحتى عَلاني حالِكُ اللونِ أسْوَدُ

قتالُ امرئٍ، آسى أخاه بنفســه ويعلمُ أنّ المرءَ غيرُ مُخـــلّدِ

فإنْ يكُ عبدُ الله خلّى مكانَـــه فما كان وقّافا ، ولاطائشَ اليـدِ

ولا بَرَما إذ ما الرياحُ تناوَعَـتْ بِرَطْبِ العِضاةِ الصريعِ المُعَضّدِ

وَهَدَّنَ وَجدي أنني لم أقلْ لـــه كذبتَ، ولم أبخَلْ بما ملكت يـدي[٥٥]

بيد أنّ النقاد قد اختلفوا حول ما بدأ به دريد قصيدته ، من هؤلاء ما جاء في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ، حيث أنّه لم ينجذب إلى ما تقدم به دريد في قصيدته ، فقد قال : " وليس من عادة الشعراء أنْ يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك في لا يقدمون المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبي ـ وكان علامة ـ : لا أعلم مرثية أولها نسيب ألا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثّ جديدُ الحبلِ من أمِ معبدٍ بعاقبةٍ وأخلفت كلّ موعد ؟

لأنّ الآخذ في الرثاء يجب أنْ يكون مشغولا عن التشبيب بما فيه من الحسرة و الاهتمام بالمصيبة ؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته "[٥٦].

وممن ذهب هذا المذهب القرطاجني مؤيدا بذلك قول ابن رشيق القيرواني ، حيث قال :" أما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مُبكي المعاني مثيرا ، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن مناسب ملذوذ ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصود ولا يصدر بنسيب لأنه مناقض لغرض الرثاء "[٥٧]

أما من المحدثين فقد رأى الدكتور حسين عطوان قائلا :" نعلم أنّ العرف لم يجر على أن تبدأ المراثي بتلك المقدمات التقليدية إلا في قصائد قليلة تعد خروجا على هذه القاعدة "[٥٨] ، وبذلك قد وافق الدكتور حسين كلا من ابن رشيق والقرطاجني برأيهم حينما

اعتقدوا بأنّ الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب وإنه شاجي الأقاويل .

بيد أنّ الباحث إجناتس جولد قد برهن على أنّ مثل هكذا مقدمات بل هي غيض من فيض في الشعر العربي القديم ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الظاهرة لخرجنا بحصيلة يضيق المقام عن ذكرها ، ولعل غزارة القصائد الموجودة تفند آراء النقاد القدامى في المرثية ، وعلى جه الخصوص آراء ابن رشيق القيرواني ، فيقول كولد :" لا تمثل واقع المرثية القديمة ، فدريد بن الصمة ليس محتاجا إلى أن يبحث له ابن رشيق عن مسوغ لابتداء مرثية بالغزل ،لأنّ الأشياء تتداعى إلى فكر الشاعر القديم بأضدادها أكثر من تداعيها بمثيلاتها، ومن ثم فلا عضاضة على الشاعر أن يجمع في قصيدة الرثاء ، بين التشبيب والرثاء ، فالحياة والموت ، أو إن شئت فقل اللذة والألم قد تساويا عنده في لحظة من الزمن . بل إن جمع الشاعر لهذين الضدين معا في قصيدة واحدة يمثل أصدق تمثيل نظرته إلى الكون والوجود "[٥٩].

وفيما يتبادر للذهن هو أنّ قصيدة دريد كانت ذي قيمة فنية من حيث الانسجام والترابط بين مقدمتها والغرض الرئيسي للقصيدة ، فإنها تبين لنا مشاعر الفقد والألم والحزن لدى الشاعر ، مما أوحى لنا أنّ غرض الرثاء قائم اساسا على الشعور بحزن الشاعر ، كما أنّ المقدمة الغزلية التمهيدية في القصيدة كانت قريبة في الوقت ذاته من حزنه ، حيث نجد الأبيات من (١ ـ ٥) فيها صورة المرأة البعيدة والقريبة عنه في الوقت ذاته ، حيث ليس له بها عناية من الناحية الشعورية ، فقاطعها فقررت أن تتركه ، وهي صورة قريبة من صورة أخيه الذي اخلص له في حبه ، ولكن الموت حلّ بينهما ، فقاطعه ولم يترك له سوى غصة من الحزن والألم ، حتى وجد عليه من طول العذل الذي تركه حزينا .

غير أنّ دريدا لم يكن الوحيد الذي تناول الغزل التمهيدي في مرثيته ، بيد أنّ هناك شعراء كثر قد جمعوا بين الرثاء والنسيب في قصائدهم من هؤلاء ، المرقش الأكبر في رثاء ابن عمه ثعلبة بن عوف ، والنابغة في رثاء أخيه كليب ، وزهير في رثاء هرم بن سنان وغيرهم من الشعراء[٦٠].

أما شعراء الملحمات فنجد أنّ بنية القصيدة في فن الغزل قد تطورت كثيرا عند أصحاب الملحمات في العصر الأموي تطورا ملموسا ، حيث تنوعت أغراضها قياسا بالعصر الجاهلي ،لأنّ فحول الشعر الجاهلي " لم يفردوا للنسيب أشعارا طويلة خاصة ، فاقتصروا على جعله في أول قصائدهم يشكون فيه شدّة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقهم من جمال "[٦١] .

وعلى الرغم من ذلك فأنّ المقدمة الغزلية لدى الأمويين إنما هي ذاتها في العصر الجاهلي ،حيث أنّها تحمل صفات الشوق والوجد نتيجة الفراق في وصف معشوقهم أو حتى زوجاتهم ، ففي العصر الجاهلي حملهم غزلهم على أن تغزل بعضهم في زوجته ، و إن خالف المتعارف المألوف ، فما حيلته إذا كان يحب زوجته حبا جما كما يحب حبيبته ، ومثل ذلك قد حدث فيما بعد في العصر الأموي[٦٢] ، مما يجعلنا هذا الأمر أن نعتقد ومما لا مجال للشك ، بأنّ العصر الأموي إنما هو امتداد من العصر الجاهلي ، ومن خلال ذلك تميز الشعر الأموي بنضجه لما توفر له ما يؤدي تطوره من حيث الشكل والمضمون .

حيث أنّ المقدمة الغزلة في العصر الأموي أكثر شيوعا في صدور مطولات الفحول عن المقدمة الطللية ،" فقد افتتحوا عددا كبيرا من قصائدهم بالغزل ، الذي تغنوا فيه بقصص حبهم وحكايات غرامهم ، وكيف كانوا غارقين في نشوة اللقاء ويظنون أنّ الأيام لن تفرق بينهم وبين محبوباتهم ..... إلى وصف محاسن صواحبهم وصفا يبنون فيه مفاتنهن الجسدية ، وقد يلمون ببعض صفاتهن المعنوية "[٦٣] ، وبذلك فقد شاع فن الغزل شيوعا واسعا في العصر الأموي ، حيث تأثر هذا اللون بأسباب اقتضتها الحالة السياسية والاجتماعية معا في هذا العصر، حتى كثرت التقسيمات لدى الدارسين في مجال الغزل الأموي ، وبالتالي يكاد يستقر رأيهم على نوعين بارزين ألا وهما : (الغزل الحسي والغزل العفيف) ، بيد أنّ هناك نوعين آخرين جرى حولهما الاختلاف أولاهما : الغزل التقليدي ، والآخر اتفقوا على جوهره واختلفوا في تسميته . فالدكتور طه حسين يسميه بالغزل الهجائي ، والحوفي بالكيدي ، وشكري فيصل بالسياسي ، ويرى الأستاذ يوسف بكار كل هذه التسميات تجري في مصب واحد[٦٤] .

ومما سبق الحديث عن المقدمة الغزلية تتضح ملامحه عند أحد شعراء الملحمات إلا وهو الفرزدق ، والمعروف قديما بمغامراته الغزلية الفاحشة ، فقد شاع في شعره الغزل الصريح الفاحش ، حيث أنه تغزل بالعربيات وغير العربيات من الإماء والجواري ، فقد كان حديثه ماجنا خليعا مع النساء ، فإنه يخوض في اللذة المحرمة ويقيض بالشهوة العارمة[٦٥] ، حيث كان في طبع الفرزدق ميل إلى اللهو والمتعة وتستهويه مغازلة النساء ومفاكهتهن[٦٦] ، فضلا عن البيئة البدوية التي نشأ فيها الفرزدق ،فهي بيئة جافة في اطار أسلافه السابقين وما تركوه من آثار خالدة ، كما أنّ التناقض والاضطراب كان تصويرا صادقا لشذوذ حياته العاطفية ، فقد كان متقلبا متغيرا في علاقاته وتصرفاته لا مع من يحب ويهوى من النساء فحسب بل مع زوجاته ايضا ، بالإضافة إلى نشأته كانت غير مستقرة وكانت سيرته فاسدة ، حيث كان في حياته فاسقا سيء الخلق ، ولم يرعو إلا بأخرة من عمره[٦٧] مما جعل ذلك الفرزدق فاحشا ماجنا في غزله .

بيد أنّ الفرزدق قد تأثر بـ(أمريء القيس) واعجب به " فقد كان الفرزدق مع طلب المتعة وايثار اللذة يحب أن يحدث بذلك ويعلنه ، فعل أمريء القيس . كان يؤثر الفضيحة ، ويسعى إليها ، ثم كان يتغنى بها ، غير آبه للفروق الكبيرة التي فرقت بين عصره ، وعصر قدوته أمريء القيس "[٦٨] ، كما أنّ مقدماته الغزلية تبين لنا على أنه فتى غارق بالملذات والمجون .

أما في ملحمته حيث ابدع لنا الفرزدق مقدمته الغزلية بإسلوب اشبه بالقصة أو الحكاية الشعرية ، ويتضح ذلك من خلال طريقته في عرض الأحداث بأنّها ظاهرة اصلية متجذرة لديه ،فقد ضمن الفرزدق في قصيدته مقدمة غزلية طويلة تضمنت واحد وثلاثين بيتا ، صوّر من خلالها مشاعره ، حيث اعلن في بدايتها أنه انصرف عن اللهو والمجون وابتعاده عن التصابي ، وانكر ما كان بينه وبين حدراء زوجته من محبة . حتى بالغ في صده عنها وتركه إياها حتى يخيل إليه بأن المنية تنتظره في الذي كان يجمعهما ، بيد أنّ قد تمعن في هجرها حتى بدت له القطيعة دونما عودة إليها ، حيث يقول : (بحر الطويل)

عَزَفْتَ بأعشاشٍ ،وما كِدْتَ تَعْرِفُ وأنكَرْتَ من حدراء ما كـــــنتَ تَعْزِفُ

وَلَجَّ بكَ الـــهِجْرَانُ حتى كأنـــما ترى الموتَ في البيت الذي كنتَ تألَفُ

لَجَاجَةَ صَرْمٍ ،ليس بالوَصْلِ، إنّما أخو الوَصْلِ مَنْ يدنو ، ومن يَتَلَـــطَّفُ[٦٩]

بعدها ينتقل الشاعر إلى وصف محاسنها، واصفا ترفها وثيابها الناعمة ، وريقها الذي يخرج منه عطر طيب الرائحة ، حيث يقول :

وإنْ نُبِّهتْ حَدراءُ من نومة الضحى دعتْ ، وعليها ثوبُ خَزّ ، ومُطرَفُ

بأخْضَرَ مِنْ نعمانَ ثمّ جَلَـــتْ بـــه عِـــذابَ الثنايا طَيّبـــا يـــتَرشَّفُ[٧٠]

ثم لم ينتظر في حديثه عن النساء عفيفات ، حتى أجمل لنا الكثير من صفاتهن ، بيد أنّه قد وجدهن شريفات محصنات ، منعمات تقوم الإماء بخدمتهن والعناية بقضاء حوائجهن ، حتى إذا جاء النهار نصفا ، أتين لهن بالمساويك لكي يصقلن بها لثاتهن ، ثم يلبسن ثيابهن ذات النوعية الجيدة مصنوعات من الحرير ، كما أنّه قد شبه تكلمهن بجنى العسل أو بمنزلة العنب الذي يقطف من كرم ، ولا يقترْنَ إلا بالأكفاء ويخالفن ضن الغيور الذي يبحث عن أخبار سيئة ، ذلك من شدة الاشفاق والغيرة عللى حرمه ، كما أنهن إذا تحدثن يذهب بقلب ويغلبن على العقل ، حيث يقول :

ومُسْتَنْفِزَاتٍ للقـــــلوب ، كأنها مها حولَ مَنْتوجاتِهِ يَتَصـــــرَفُ

تَراهُنَّ من فـــــرط الحياء كَأنّـــــها مراضُ سُلال ، أو هَوالِكُ نُـــزَّفُ

وَيبْذُلن بعـــــد اليأس من غير ريبةٍ أحاديث تَشْفي المُدْنَفِينَ، وتَسْعَفُ

إذا هُنّ ساقَـــــطْنَ الحديثَ حَسِبـــتَهُ جنى النحلِ، أو أبكارَ كَرْمٍ يُقَطّـفُ

مـــــــوانعُ للأســـــرارِ إلا لأهلِها ويخلِفنَ ما ظَنَّ الغيورُ المُشَفْشَفُ

إذا القُنْبُضات السّودُ طَوّفنَ بالضحى رَقَدنَ عليهنّ الحِجالُ المُســـجّفُ

وإن نَبَّهَتْهُنّ الولائِدُ بـــــــــــعدما تَصعَّدَ يوم الصيفِ، أو كاد يَنْصُـفُ

ودعونَ بِقُبانِ الأراكِ التي جـــــنى لها الرّكبُ من نعمان أيّامَ عَرّفــوا

فَمِحْنَ به عَذْبَ الثنايا ،رُضابُـــــــهُ رِقاقٌ ، وأعلى حيثُ رُكّبْنَ أعجَـفُ[٧١]

ثم بعد ذلك ينقل إلى وصف امرأة حبيسة في قصرها لا مكنه الوصول إليها وقد دعته إلى وصالها ،وعلى قصرها حراس أشداء مجهزين بالسلاح أقوياء أصحاب لحى صهباء ، راكزين رماحهم في الأرض ولابسين دروعهم ،فضلا عن كلابهم الضارية ، ما مرّ أحد جريء بهذه الكلاب إلا اقتسمته بأنيابها بالنهش والتمزيق ، غير أنّه بقى على أمل ورغبة من الوصول إليها ، فصور رغبته فيها حتى تأتي له فرصة اللقاء بها ، فقد دعا الله تعالى طالبا بأن ينشغل زوجها في مرض حتى يلتقي بها ، ويدرك ما كان طامحا إليه ، متمنيا أن يكون الطبيب المعالج له، حتي يمكنه الاتصال بها والإفضاء إليها ، حيث يقول :

فكيف بمحبوسٍ، دعاني ودونـــهُ ... دُروبٌ ،وأبوابٌ ،وقصرٌ مشـــــرفُ

وصَهبُ لِحاهم راكِزونَ رماحــهم ... لهم دَرَقٌ تحت الغـــــوالي،مُصَفَّفُ

وضـــاريةٌ، ما مرّ إلا اقتســـمْتَهُ ... عليهنَّ خَوّاصٌ إلى الطّنْءِ، مِخْشَفُ

يُبَلّغُنـــــــــا عنها بغير كلامِــها ... إلينا من القصرِ البَنـــــانُ المُـطَرَّفُ

دعوتُ الذي سَوّى الـسماءَ بأيْدِهِ ... ولله أدنى مِنْ وَريــدي وألـــــــطفُ

لِيَشْغَلَ عـنّي بَعْلَها بزمـــــــــانَةٍ ... تُــدَلّهُهُ عنّى وعنـــــها ، فتُسْعِفُ[٧٢]

ثم ينتقل الفرزدق إلى أمنية هو تمناها بأن يكون هو وحبيبته بعيرين غير محببين يطردان ويبعدان في حال اقترابهما من الماء ؛ لأنّهما أصيبا بالجرب ، حيث أنّ رمزية البعير الأجرب المحروم من الماء توحي بصبر الشاعر على تحمل قيود المجتمع الضاغطة عليه ومحبوبته المتخيلة ، وبهذا يفتش الشاعر عن منفذ تعبيري فني لبلوغ غايته الفنية في موضوع قصيدته ، وبذلك نرى الفرزدق يفصح عن عاطفة خشنة قد عابه عليها القدماء ، فمن هؤلاء ابن رشيق القيرواني ، يقول :" وإذا كان بعيرا فما هذه الأمنية التي كلها للحيوان الناطق ؟ لولا أنّه ردها إلى نفسه حقيقة ، وإلا فما أملح الجملَ نشوان يصيدُ الحباري بالبازي"[٧٣] ، حتى أطال النقاد من القدماء والمحدثين في تشبيهه وعيبه ، حيث يقول :

ألا ليتنا كنّا بعيرين ، لم نَـــــرِد ... على حاضٍ إلا نُشـــــلٌ، ونُقـــتذفُ

كلانا به عَرٌ ، يـــــخاف قِرافُــهُ ... على الناس، مَطْليُّ المساعِرِ، أخْشَفُ

وبأرضٍ حَلاءٍ وَحدَنا ،وثيابَـــــنا ... من الزّيْطِ والديباج دِرْعٌ ومِلْحـــــفُ

ولا زادَ إلا فَصـــــلَتانِ ،وسُلافَةٌ ... وابيض من ماء الغَمَـــــاسَةِ فَرْقَفُ

وأثلاء لحم من حباري ، يصيدُها، ... إذا نحن شِئنـــا ، صاحب مُتَـــألّفُ[٧٤]

بيد أنّ للجاحظ رأيا في غزل الفرزدق ، حيث يقول :" إنّه كان مستهترا بالنساء، وزير غوان ، وفي ذلك ليس له بيت واحد في النسيب . مع حسده لجرير وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا كم"[٧٥] ، كما أنّ الدكتور حسين عطوان قد بين رأيه ايضا في غزل الفرزدق كغيره من النقاد ، حيث يقول :" إنّه غزل يخالف غزل غيره من الشعراء حيث اختياره معانيه ألفاظه . فقد رأيناه يتحدث عن إعراضه عن زوجته حدراء إعراضا وصل إلى حد القطيعة ، وما نعرف أنّ الشعراء هم الذين يزورون عن صواحبهم ، وإنما نعرف أنهن هن اللائي يعرضن عنهم ، وأنهم هم الذين ينشغلون بهن ، وما عهدناهم يتوجهون إليهن بلهجة عنف كلها عنف وقسوة ، وبكلمات فيها غير قليل من الخشونة والغلظ ، وإنما عهدناهم يخاطبوهن بكلام رقيق معبرين عن هيامهم وغرامهم بهن متوددين إليهن أن ينظرن إليهم ، مما صرف النساء عنه ، ومما صرف الرواة عن رواية غزله . وليس من شك أن جفاء طبعه هو الذي حال بينه وبين استخراج الأنغام الإنسانية من قيثارة شعره "[٧٦].

ومن المقدمات الغزلية التي نجدها ايضا عند احد شعر الملحمات ، ـ جرير ـ وكما يبدو في معرض حديثنا ـ والذي برز في قول الجاحظ ، على أنّ الفرزدق كان في غزله فاحشا ، وجرير كان غزله عفيفا ؛ لان جرير لم يعشق امرأة قط، وقد التمسنا قول الجاحظ في شعر جرير بإحدى قصائده ردا على قصيدة الأخطل التغلبي ، حيث يقول الأخطل :

كَذَبْتكَ عينُكَ أمْ رأيت بِوسِطٍ غَلَسَ الظلامِ من الربابِ خَيالا(٧٧)

حيث ردّ جرير القول عليه هجاء ، ولكن تقدم القصيدة غزلا ، في نقيضته ، والتي أولها : (من الكامل)

حَيّ الغَداةَ بِرَامةَ الأطلالا رَسْما تَقَادَمَ عهدُهُ فأحالا(٧٨)

وكما يبدو أنّ جريرا قد نسج في غزله على منهج المقدمات القديمة ، منها ذكر الأحبة ووصف الأطلال والديار ،وهذا الغزل عادة لم يخل في أي عصر من العصور ، كما أنّ ابن قتيبة يؤكد " أنّ مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمنِ والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع واستوقف الرفيقَ ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلةّ العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلةُ المَدَرِ، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ولِيَسْتَدْعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأنّ التشبيب قريب من النفوس ، لا يط بالقلوب....."(٧٩).

بيد أنّ جرير قد فتح مقدمة قصيدته بالنسيب ، فوصف الديار وحياها ، حيث أنّه قد خص الديار التي وقف على رامتها بعد أن كانت عامرة بالأحباب ،فتغيرت ملامحها ريثما غادروها ، فقد كان جرير متمسكا بها وواقفا عندها ؛ لأنّ كل ما موجود يذكره بمحبوبته وبأطلالها ، حيث صور كل ما حلّ بهذه الأطلال من موجودات بعد أن كانت تعج بالحركة والحياة حتى انتهت الحال وافقرت من ساكنيها واضحت دونما حياة ، وبذلك يجعلنا نحس بما يشعر به من احساس مرهف ذي طابع مليء بالحزن والآسى داخل جوفه العليل ، ويقول الدكتور شوقي ضيف :" كل من يقرأ غزل جرير ومقدماته لنقائضه وقصائده يشعر أنّه يقرأ لنفس غير مبتهجة " (٨٠)، وكل ذلك يرجع إلى " أنّ جرير كان من أسرة فقيرة ... فكان ذلك سببا لأن يشعر جرير بشيء من الحزن ، ولا شك في أن هذا الحزن الذي كان يتسرب إلى قلبه كان ذا أثر بعيد في صفاء نفسه وارهافها وتهيئتها لأن يتفوق في الغزل والتشبيب ، لأنّ الحزن من عادته أن يجلو النفس ويجلو ما يصدر عنها ، وخاصة إذا كان شكوى من حبيب "(٨١) ، ونتلمس قول ضيف في مُلحمته ، حيث يقول :

حيّ الغداةَ بِرامـةَ الأطـــــلالا رسما تقادمَ عهدُهُ ، فأحـــــالا

إن الغواديّ، والسّواريَ غادرنَ للريحِ مُخْتَرَقا بـه ، ومجـــــلا

أصبحت بعد الحميع أهلِكَ دِمْنَـةً قَفْرا ، وكنتِ مَحَلّةً مِحْـــــلالا

لم نَلفَ مثْلكَ بعد أهلِكَ منـــــزلا فسقيت من نَوْءِ السِّماكِ سجالا

ولقد عَجِبْتُ من الديار وأهلِهـا والـــــهرِ، كيف يُبـــدَّل الأبدالا

ورأيت راحِلَةَ الصِّبا، قد أقْفَـرَتْ بعد الدَّميل ،ومَـــــلّتْ الترحالا

إنّ الظعائِنَ، يوم بُرْقَةِ عاقـــــلٍ قد هِجْنَ، ذا خَبَلٍ، فَزِدْنَ خَبـــالا

هام الفؤادُ بِذكرهِنّ، قد مضـــت باليل أجنِحَةُ النجومِ، فعـــــالا

يَجْعَلنَ بُرْقَـــةَ عـــاقلٍ أيْمانَـها وَجَعلنَ أمعزَ رامتينِ شمـــــالا(٨٢)

فالذي نجده في هذه المقدمة هو أنّ جرير قد جمع في تلك اللوحة الشعرية بين مشهدين الأول مشهد طللي عرض فيه الآثار المندثرة وما تركته عليها الريح ، والمشهد الثاني (الظعن) المتضمن لرحيل محبوبته .

ثم بعدها ينتقل ليخاطب طيف زوجته (أم حرزة) ، فقد زاره طيفها ليلا ليذكره بها وبحبها ، ليبعث بذلك على الاستطراد في النسيب، وفي ذلك تعبير على صدق عاطفته ورقة احساسه وعذوبة ألفاظه، حيث يقول :

يا ليت شعري يومَ دارَةِ صُلْصُلٍ أ يَرِدْنَ صَرْمى أم يُرِدَنَ دلالا

فَلَوَ انّ عُصْمَ عما يَتَيْنِ و يَـذْبُلٍ سمعا حَديثي، نَزَّلا الأوعـالا

لا يَتَّصِلْنَ إذا افتَخَرْنَ بتغلـــب ورُزِقْنَ زُخْرُفَ زِينَةٍ وجمـالا

طَرَقَ الخيالُ ، وأيُّ مَطْـــرَقٍ وَلَحَّبذا الطُّيْفُ المُلِمُّ خـــيالا(٨٣)

غير أنّ الشاعر في البيت الثالث من المقطوعة الشعرية أعلاه نراه قد اشغل هجاءه للأخطل من جانب الدين ، حيث جعل نساء تغلب لا يتصلن بتغلب ، ثم وصفهن قد رزقن بالزينة والجمال والزخرفة ، ومن خلال شعره يمكن القول بأن هناك دوافع نفسية وراء مقدمته الغزلية ،وليست هي مقدمة للغرض الرئيسي في قصيدته الهجائية ، بل تعد لوحة فنية من النسيب مستقلة بذاتها على خلاف المقدمات الغزلية لدى الشعراء الآخرين.

الخاتمة

هذا ما تواضع عليه الدارسون لمعرفة هيكلية القصيدة العربية في قصائد أصحاب الطبقتين ، هو أنّ اصحاب الملحمات قد ساروا إلى ما سار إليه أصحاب المنتقيات من حيث المقدمة الطللية والوقوف على الديار واستذكار الأحبة وغيرها ، فالمقدمة الطللية ماهي إلا تقليد اتخذه أصحاب الملحمات وتوظيفها في قصائدهم ، حيث كانوا دائما يعودون إلى الأطلال الثابتة وينظرون فيها ويستغلون صفاتها ، فهم رسميون وذاتيون في نهجهم للمقدمات الطللية . أما من حيث المقدمات الغزلية نجد أنّ بنية القصيدة قد تطورت كثيرا عند أصحاب الملحمات في العصر الأموي ، حيث تنوعت أغراضها قياسا بقصائد المنتقيات في العصر الجاهلي ؛ لأن أصحاب المنتقيات لم يفردوا للغزل أشعارا طويلة ، فاقتصروا على جعله في أول قصائدهم يشكون فيه الألم والفراق ، أو

يصفون فيه ما في محبوباتهم من محاسن .

الهوامش

(١) ينظر : مصادر الشعر الجاهلي : ٥٨٧،٥٨٨

(٢) ينظر : العصر الجاهلي : ١٧٨

(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ٣١٣

(٤) معجم مقاييس اللغة : ٥٩٢

(٥) الشعر والشعراء : ٧٤

(٦) دراسات في الشعر الجاهلي : ١٢٥

(٧) العمدة : ٢٢٥

(٨) نفسه : ٢٢٦

(٩) مدخل إلى بنية القصيدة قبل الإسلام : ٦٠

(١٠) مقالات في الشعر الجاهلي : ١٩

(١١) جمهرة أشعار العرب جـ٢/٥٦٣

(١٢) نفسه : ٥٦٣،٥٦٤

(١٣) نفسه : ٥٦٥،٥٦٦،٥٦٧

(١٤) نفسه : ٦٠٧

(١٥) نفسه والصفحة نفسها

(١٦) نفسه والصفحة نفسها

(١٧) نفسه : ٦٠٩

(١٨) نفسه والصفحة نفسها

(١٩) نفسه : ٦١٠

(٢٠) نفسه : ٦١٠،٦١١

(٢١) نفسه : ٦١١،٦١٢

(٢٢) نفسه : ٦١٢،٦١٣

(٢٣) شرح أشعار الهذليين : ١١٧٣

(٢٤) جمهرة أشعار العرب جـ٢/٦١٣

(٢٥) نفسه والصفحة نفسها

(٢٦) نفسه : ٦١٣،٦١٤

(٢٧) نفسه : ٦١٤،٦١٥

(٢٨) شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى بداية القرن الثالث : ٦٢

(٢٩) مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي : ١٦٥

(٣٠) شعر الوقوف على الأطلال : ٧٨

(٣١) مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي : ١٧٤

(٣٢) شعر الوقوف على الأطلال : ٧٩

(٣٣) جمهرة أشعار العرب جـ٢/ ٩٤٩

(٣٤) نفسه : ٩٥٠،٩٥١

(٣٥) نفسه : ٩٥٢

(٣٦) نفسه والصفحة نفسها

(٣٧) نفسه : ٩٥٢،٩٥٣

(٣٨) نفسه : ٩٥٤،٩٥٥

(٣٩) نفسه : ٩٥٥

(٤٠) شعر الوقوف على الأطلال : ٨٠

(٤١) نفسه والصفحة نفسها

(٤٢) جمهرة أشعار العرب جـ٣/ ٩١٧،٩١٨

(٤٣) نفسه : ٩١٩

(٤٤) نفسه : ٩٢٠

(٤٥) نفسه : ٩٢٢،٩٢٣،٩٢٤

(٤٦) معجم الوجيز : ٤٥

(٤٧) نفسه : ٦١٢

(٤٨) نفسه : ٣٣٣

(٤٩) المنتخب من رسائل الجاحظ : ١٨٨،١٨٧

(٥٠) العمدة : ١١٧

(٥١) البنى الثابتة والمتغيرة لشعر الغزل : ١٠٣

(٥٢) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي : ١٢٨

(٥٣) دراسات في الشعر الجاهلي : ١٤٨

(٥٤) الأصمعيات : ١٦٠

(٥٥) جمهرة أشعار العرب جـ٢/ ٦٠٤،٥٩٧

(٥٦) العمدة : ١٥٢،١٥١

(٥٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣٥١

(٥٨) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي : ١١٠

(٥٩) ملاحظات على المراثي العربية : ١٧٨

(٦٠) ينظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي : ١١١

(٦١) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية : ١٠٢

(٦٢) ينظر : الغزل في العصر الجاهلي : ٢٠

(٦٣) مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي : ٥٩

(٦٤) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : ٢٠

(٦٥) نفسه : ٢١

(٦٦) الفرزدق : ٣٦٦

(٦٧) ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي : ٦٤،٦٣،٦٢

(٦٨) الفرزدق : ٣٦٦

(٦٩) جمهرة أشعار العرب جـ٢: ٨٨٢

(٧٠) نفسه :٨٨٤

(٧١) نفسه :٨٨٤،٨٨٣

(٧٢) نفسه : ٨٨٥

(٧٣) العمدة : ١٢٧

(٧٤) جمهرة أشعار العرب جـ٣ : ٨٨٦،٨٨٧

(٧٥) البيان والتبيين : ٢٠٨،٢٠٩

(٧٦) مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي : ٦١،٦٢

(٧٧) نقائض جرير والأخطل : ٧٠

(٧٨) جمهرة أشعار العرب جـ٣: ٩٠٦

(٧٩) الشعر والشعراء : ٧٤،٧٥

(٨٠) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ١١١

(٨١) نفسه والصفحة نفسها

(٨٢) جمهرة أشعار العرب جـ٣ : ٩٠٦،٩٠٧

(٨٣) نفسه : ٩٠٧،٩٠٨

المصادر والمراجع

ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، يوسف بكار ، دار المعارف ، مصر .

ـ الأصمعيات ، للأصمعي ، تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط٥ ، بيروت ـ لبنان .

ـ البنى الثابتة والمتغيرة لشعر الغزل في صدر الإسلام والعصر الأموي ، د شاكر التميمي ، دار الرضوان ، المملكة العربية الهاشمية ، عمان ، ط١ ، ٢٠١٢م.

ـ البيان والتبين ، الجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، جـ ١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ، شوقي ضيف ، ط٨ ، دار المعارف .

ـ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة .

ـ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ط١١ ، دار المعارف ، القاهرة.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، جـ١، تح محمد محي الدين ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، ط٥ ، ١٩٨١م.

ـ الفرزدق ، الفحام ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٧م .

ـ المنتخب من رسائل الجاحظ ، د رحاب خضر عكاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٩٢م.

ـ تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، كارلو تالينو ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٤م.

ـ جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد القرشي ، تح محمد علي الهاشمي ، ط١ ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر ، السعودية ، ١٩٧٩م.

ـ دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف ، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

ـ دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

ـ شرح أشعار الهذليين ، لأبي سعيد الحسن العسكري ، تح عبد الستار أحمد محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة .

ـ شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى بداية القرن الثالث ، د عزة حسن ، دمشق ، ١٩٦٨م.

ـ مدخل إلى بنية القصيدة قبل الإسلام ، محمد محمود الجادر ، مجلة أبحاث اليرموك " سلسلة الآداب واللغويات " ، مجلد ٦ ، العدد (٢) ، ١٩٨٨م.

ـ مصادر الشعر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٥٦م.

ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف سركيس ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨م.

ـ معجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، مصر ، ٢٠٠٤م.

ـ معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م .

ـ مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ، دار الحقائق ، الجزائر ، ١٩٨٠م.

ـ مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، د حسين عطوان ، دار المعارف ، مصر .

ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ، د حسين عطوان ، دار المعارف ، مصر .

ـ ملاحظات على المراثي العربية ، اجنتس جولد زيهو ، تعريب د عبد الله أحمد المهنا ، العدد (٥) ، ١٩٨٢م.

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، القرطاجني ، تح محمد الحبيب الخوجة ، دار الغريب الإسلامية .

ـ نقائض جرير والأخطل ، لأبي تمام عني بطبعها انطوان صالحاني اليسوعي ، مطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٢٢م.